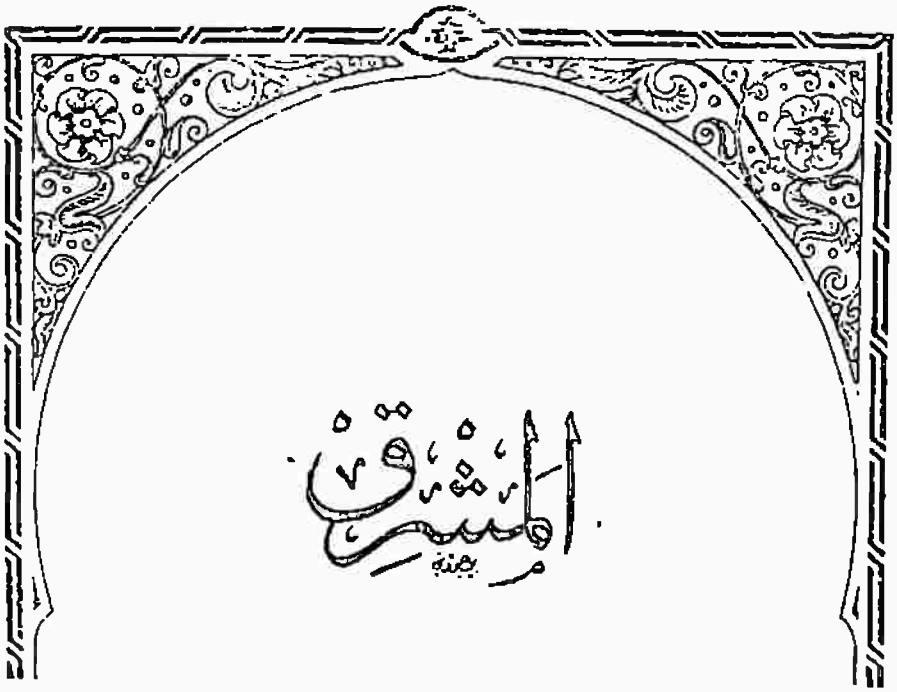

السنة الخامسة والاربعون

تموز – ايلول ١٩٥١

تمهيد

لا يستطيع الفرد البشري ان يتحرر من الالم الّا بفقدان حريته . هذا ما قاله برديايف في كتابه « روح دوستويفسكي » .

اذا كان من المؤكد ان الانسان يستطيع ان يفقد كل شيء اذا ما صدمته اسباب خارجية قاهرة او احتياجات داخلية ، فمن المؤكد ايضاً ان لا شيء في العالم يستطيع ان يُفقده ذلك الكنز الحقيقي الوحيد الذي يملكه في الارض ، الا وهو حريته . لا المادة ولا المصنع ولا تعسّف من اي نوع كان يستطيع ذلك . ولكن الانسان ذاته يوسعه ان يفقد حريته اذا رفض المحنة والالم الذي هو الطريق الى الحب .

اضعفته وحقرته المتناقضات ، واحزنته الخيانات التي يستهدف لها من كل جانب ، واستعبدته الضرورات اليومية ، وغلّلته مطالب القوت اليومي المقلق ، وزعزعه التهالك المتواصل على اللذة التي لا تشبع جوعاً ولا تروي ظمأ ، واتخمته الاموال وخيور الدنيا ، ولكن الانسان ما برح في جوعٍ ، يتشوق الى ابعد من كل ذلك مدفوعاً بقوة داخلية لا تُدرك ولا تُحدّ ، يتشرّق الى تحرير القيَم التي تؤلف كيانه العميق ، الى تحرير حريته الانسانية التي تأبى الموت . وهذه الحرية ترفض اليأس ولا تعتو له . وكل انسان مهما كان معوزاً او مثرياً يدرك ان له في هذا المجال عملاً جبّارًا عليه ان يؤديه ، ويدرك ايضاً انه لن يؤدي عمله الحقيقي الّا من الداخل . ولهذا فان عالم اليوم الذي اقصى الانسان عن ذاته هو وحده المسؤول عن هذا الفراغ الذي نشعر بكثافته حولنا . عالم اليوم هو بحاجة الى روح . وكم يحاولون ان يعطوه اياها حين يملأون احساسه بالتسليات العابرة . ولكن ما تستطيع هذه التسليات امام هذه الحقيقة الجبارة ، حقيقة داخلية الانسان التي تقدر وحدها ان تجد الله فتعطي قيمة للانسان وللمدنية التي يبنيها . اقول يبنيها ، لانه احياناً لا يبني شيئاً . ارادوا من الانسان ان يعتقد بان له في التكاسل واللهو والتغاضي ما يشبع متطلبات نفسه المتوثبة ، فقدموا له شاشة بيضاء ومرسحاً وملهىً ومخدّرات اخرى عديدة ، وتناسوا ان جوع الانسان هو روحي وانه في غير هذا الجو الروحي يختنق اذ يستولي عليه اليأس . وكم تجهر مدنيتنا عالياً بهذا اليأس . وكم من تآليف تحمل هذا العنوان . وسيطول هذا الى عهد ، ولكن اليأس لن يظفر في النهاية . لان الانسان سيستمد من شجاعته قوّة توجّهه نحو الينابيع التي تروي والاشعة التي تنير ، وسيجد وجهة مصيره في ما وراء المادة وما وراء المستعبدات . وما ذاك الّا لأنه سيجد حريّته التي لن يلاشيها شيء ، بعد ان حاول كل شيء ملاشاتها .

وهذه الحرية تنمو في مصهر الالم والبلاء . وهكذا تجد ذاتها مطهرة من كل مزيج ، محررة من الشر الذي يريد ان يخنقها في اللذة والمادة وفي كل ما هو غير الحب . والحب يظهر البلاء والالم .

- فاذا كان المسيح مات ليسترجع من اكف الشر حرية استعبدها الشر ، على الانسان ان يفهم ان ذلك لم يكن الا امثولة له . فعليه ان يتبع المسيح عن كثب او فيشاركه عن كثب او عن بعد . ولكن من الداخل على كل حال ، يشاركه في الله الجبار . وهكذا يظفر بالتحرر الاكمل لذاته ولاخوانه البشريين الذين يؤلف معهم وحدة لا ينفرط عقدها . هذه هي الحقيقة الوحيدة . وبعد أليس من المؤكد ان الانسان الذي اصبح هكذا حرًا بالالم والمحنة يتعرف الى الفرح الذي هو نتيجة عراك ، وهل من عراك دون ألم ؟ قد يضمحل الجسم وقد لا يصبح غير غطاء شفّاف للنفس المسكينة المتطهرة البيضاء . ولكنه لن يوقف نهم الفكر الذي يتطلب المطلق وينشد الحرية الداخلية .

◆

كم يحاولون اليوم ان يطمئنوا حرية الانسان ويجرّدوه من هذا الطهر الاسمى الذي يغار عليه ، وهو على حق في ذلك ؟ ألا يحاولون بكل الاساليب والوسائط ان يلاشوا معنى الحياة ، معنى الحب الحقيقي ، اساس الحرية ! اذا كنت تكلمت في العدد الفائت من المجلة عن فقدان تذوّق الحياة ، فما ذاك الا لأن انسان اليوم فقد — ولن يفقد تماماً — معنى حريته التي هي اساس عظمته . لقد فقد العلاقة المباشرة مع الواقع المنتحب ، المنتظر الخلاص ، وفي هذا الواقع ينبسط الصليب حتماً ، شئنا ام ابينا . ولكن انسان اليوم رفض ان يصغي الى النداء المتصاعد من الحياة الواقعية ولم يفقه منه سوى ما هو سطحي ثانوي .

◆

وانها لضرورة ملحة ان يتعاضد ذوو الارادة الصالحة ليقفوا سداً بوجه الشر الطاغي . انها لضرورة ملحة ان تحتفظ المدنيّة بوجهها الانساني . وكيف تستطيع ذلك اذا كان وجه الانسان ذاته اصبح مشوّهاً . فمن كل الآفاق — لو تسمعنا قليلاً — يتردّد نداء اخرس يدعو الى استرجاع معنى الحرية المفقود . ولن يكون للنداء جواب الّا بقدر ما يرضى انسان اليوم بان يمرّ بين خيور الارض دون ان يتوقف عليها ، يرضى بألّا يتوقّف على المحدود المغري لكي يتسل ، عن طريق الالم المتواصل والعراك الداخلي الرجيع ، الى حريته الكاملة الملأى .

الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي